|  |  |
| --- | --- |
|

|  |
| --- |
| **وحيد في لفظه.. فريد في معناه: الماء...****ضاحي عثمان****باحث أكاديمي****الصحراء العربية إقليم طليق، لا يصد هواءه بناء، ولا يحجب شمسه غيم، ولا يحبس أمطاره وسيوله سد.. كل شيء فيه حر على الفطرة. هذا النوع من البيئة حدد نوع معيشة العرب (قبل الإسلام)، فهم رحل يطلبون الكلأ؛ وهم فقراء، ثروتهم في كثرة ماشيتهم، وهذه الثروة تحت رحمة الله، فقد تنفق الماشية، وينضب ماء الآبار، ويقل المطر، فيقل المرعى ويسوء العيش، وبحق سموا المطر غيثا.****واللغة العربية في ذلك العهد (ما قبل الإسلام) كانت نتيجة طبيعية لتلك الحياة، وصورة صادقة لهذه البيئة، فألفاظ العربية -مثلا- في منتهى السعة والدقة، إذا كان الشيء الموضوع له اللفظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية.. وهي قليلة غير دقيقة فيما ليس كذلك!****وحتى نستوعب ذلك انظروا إلى الإبل -مثلا- وهي عماد الحياة البدوية، وهي خير مأكشلهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم، فحياة العرب في الصحراء تكاد تكون مستحيلة لولا فضل الجمل، من أجل هذا ملئت اللغة العربية بالإبل، فلم يترك العرب صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بها إلا وضعوا لها اللفظ أو الألفاظ؛ فوضعوا الألفاظ لها وللحمها ونتاجها، ووضعوا الأسماء لأسنانها (أعمارها) وحلبها، ورضاعها، وفطامها، ونعوتها في طولها وقصرها وسمنها وهزالها وأصواتها وأوصافها وأوبارها، وعلفها واجترارها، ورعيها، وبروكها، وأبوالها، وحركة أذنابها، وأنواع سيرها ورياضتها، والرحال وما فيها، وكل ما يشد عليها، وقيودها ونزع قيودها، وسماتها وعيوبها، وجربها وأمراضها وأدوائها... إلخ.****ولم يقصر العرب على اللفظ الواحد للمسمى الواحد، بل وضعوا له الأسماء المتعددة، فإذا أنت انتقلت من الجمل إلى السفينة رأيت اللغة العربية غاية في القصور، فهم لم يوفوها حقها، كما وفوا حق الجمل، ولم يصفوا كل أجزائها، ولم يضعوا أسماء لكل نوع من أنواعها. نعم، هناك ألفاظ تتعلق بذلك، ولكنها لا تكاد تذكر إذا قيست بالألفاظ الموضوعة للإبل وشئونها، بل إننا إذا فحصنا الألفاظ المستعملة في السفن ومتعلقاتها، وجدنا كثيرا منها معربا غير عربي؛ كالسيابجة واليماسرة والأنجر، وكثيرا منها لا تشك في أنه وضع بعد العصر الجاهلي.****فالأراضي الصحراوية، بما فيها من رماد ونجود ووهاد، وما فيها من كلأ وأعشاب وحشرات وهوام، كل ذلك وصفه العرب، ووضعوا له الأسماء المختلفة، فالأراضي الصلبة والغليظة والمستوية والواسعة والمطمئنة والمجدبة والمخصبة والهضاب والوديان.. قد شرح كل نوع منها ووضع له اسم وأسماء، أما البحار وما حوته من أنواع الأسماك والأصداف والأمواج ومختلف المياه فليست اللغة غنية فيها.****المقارنة بوضوح****وحسبك دليلا على هذا أنك إذا نظرت في كتاب مثل «المخصص» لابن سيدة، وميزته أنه يجمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد، أمكنك أن تقارن هذه المقارنة بوضوح، فقد استغرق فيه الكلام عن الإبل وما يتعلق بها 176 صفحة كبيرة، عدا ما ذكر متفرقا في مواضع أخرى منه، في حين أن السفينة استغرقت منه أقل من سبع صفحات!****فماذا يعني هذا الكلام؟!****هذا القول يعني أن الكلام عن الإبل أخذ نحو جزء من أجزاء الكتاب السبعة عشر، وبالتالي فأنت إذا قلت: إن ما ورد في كلام العرب مما يتعلق بالإبل وحدها يعادل جزءا من سبعة عشر جزءا من مجموع اللغة العربية لم تكن بعيدا عن الحقيقة أبدا، وهي نسبة كبيرة جدا، ولكن هو الجمل.. عماد الحياة العربية البدوية!****هذا في المحسوسات، وإنك لتجد مثله أيضا في المعنويات؛ فكلمات السرور واللهو واللعب والمزاح أقل من كلمات البؤس والقتال والحزن والويل.. ألم تر أنهم تفننوا في الداهية فصاروا يخترعون لها من الأسماء ما أتعب اللغويين؟! حتى جمع حمزة الأصفهاني من أسمائها ما يزيد على الأربعمئة، وحتى قالوا إن كثرة أسماء الدواهي من الدواهي!****ذلك لأن طبيعة البيئة تستدعى ذلك، فهي بيئة شقاء وفقر لا بيئة رخاء ونعيم.****وكذلك الحال بالنسبة إلى الأسد، إذ تتميز لغتنا العربية بغنى كلماتها أو ألفاظها ووجود عشرات المرادفات التي تتعلق بالأسد، فهو يتمتع بأكثر من خمسمئة اسم وصفة، ومن أشهر هذه الأسماء: أسامة - البيهس - التاج - الحرث - حيدرة - الدواس - الرئبال - زفر - السبع - الصعب - الدرغام - الضيغم - العنبس - الغضنفر - الفرافصة - القسورة - الليث - المتأنس - المتهيب - الهرماس.. وغير ذلك. على أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى؛ فالأسد أشرف الحيوانات المتوحشة، إذ إن منزلته منها منزلة الملك المهاب بقوته وشجاعته وقسوته وشهامته وجهامته وشراسة خلقه.. ولذلك يضرب به المثل في القوة والنجدة والبسالة، وشدة الإقدام والجرأة .****عشرات المترادفات****ولكن رغم هذا الغنى للغة العربية وتميزها بوجود عشرات المرادفات لبعض الكلمات، كالجمل والأسد والسيف وغيرها، فإن كلمة مثل «الماء» نجدها وحيدة وفريدة؛ وحيدة في لفظها، فريدة في معناها، لا مرادف لها، حتى قيل «فسر الماء بعد الجهد بالماء»!****وهذا أمر عجيب في لغتنا العربية الغنية في مرادفات كلماتها. ويوم أن يصبح لا مرادف ولا بديل للماء، فهذا يدل على شيء خطير حقا يختص به الماء، بل إن العجب يمتد أيضا إلى الطبيعة من حولنا، فرغم وجود بدائل لكثير من المواد الضرورية لبقاء الإنسان، فإنه لا يوجد بديل للماء، وهو الأمر الذي يدل على أن هذا المركب السحري (الماء) فريد ومهم.. كان، شاء له الله تعالى أن يكون، مصدرا للحياة، وآية من آيات الخالق جل جلاله وتعالت قدرته!****إن الماء يعد المركب الأكثر أهمية في الطبيعة بعد الأكسجين الضروري لتنفس الإنسان والحيوان والنبات. وتأتي أهميته نتيجة أنه -هو الآخر- ضروري لنشوء وبقاء الكائنات الحية جميعها، وقد ميز الله تعالى الماء بمكانة خاصة عن بقية الموارد، فقد ميزه بخصائص فيزيائية طبيعية وكيميائية وحيوية فريدة، وذكره في كتابه الكريم القرآن الكريم، وربط ذكره بالحياة وبالرزق وبالطهارة، فجعله آية من آيات قدرته سبحانه وتعالى على كل شيء لمن يعتبر ويبصر، فكان بذلك مركبا عجيبا فعلا وآية بينة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى .****إن الماء بحق هو مصدر الحياة على الأرض، ولن تجد للحياة أثرا إذا لم يكن للماء وجود، وسواء أكان الماء عذبا أم مالحا، يجري فوق السطح أو يختزن في باطن الأرض، فإن مظاهر الحياة ترتبط به، فالماء مصدر للشرب، والماء مصدر للري، والماء مصدر للطاقة، والماء مصدر للغذاء، إذ تعيش فيه الأسماك وسائر أشكال الحياة المائية، والماء مصدر للعلاج، والماء منجم لكثير من المعادن ومنذ خلق الله تعالى البشر وهم يتجمعون حيث يجدون مصدرا للماء!****لقد نشأت الحضارات وتطورت على مر العصور وعلى اختلاف ألوانها وتباين أعمارها مع التجمعات السكانية في أحضان الأنهار أو حول عيون المياه الجوفية، وارتبط التطور العلمي والتكنولوجي الحديث بتطور أساليب استغلال وتنمية مصادر المياه المتاحة للأغراض المختلفة، ومنذ أن ارتقى الإنسان وتنوعت مفاهيمه في شتى فروع العلم وتنوعت احتياجاته من ضروريات الحياة.. تطورت لذلك حاجته إلى المزيد من مصادر المياه، يتلمسه تارة في إنشاء الخزانات الكبيرة أمام سدود على الأنهار الجارية، وتارة في البحث والتنقيب عن المياه الجوفية، وتارة في تحلية المياه المالحة على شواطئ البحار، وتارة رابعة في الإمطار الصناعي. وفي عالمنا الحديث يقاس التقدم الحضاري لأي أمة بمدى ما يتوافر لأفرادها من مياه تفي باحتياجاتهم المتعددة، واستعمال هذه المياه على الوجه الأكمل.****ويستمد الماء أهميته من كونه جواز السفر الذي من دونه لا تتحرك الحياة على الأرض من مكان إلى آخر، ومن دونه يطبق الصمت الرهيب على الكون.. صمت القبور، وصدق الله تعالى عندما قال في كتابه الكريم: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ  أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} (الأنبياء:30)، إذ لولاه لما كانت هناك حياة على ظهر الأرض، فالماء هو سر الوجود.****وقد ورد ذكر الماء في القرآن الكريم في 64 سورة.. ولما كان الماء هو عنصر البقاء للبشرية فقد حظي بوجود 286 معاهدة حول المجاري المائية التي أصبح أسلوب المشاركة في استخدام مياهها عبر الحدود الدولية سببا من أسباب التعاون الدولي، فعلى سبيل المثال فإن 214 نهرا للمياه العذبة لها صفة التعدد الدولي، منها 155 نهرا تستفيد منها دولتان، و36 نهرا تستفيد منها ثلاث دول، و23 الباقية يستفيد منها عدد من الدول يتراوح ما بين 4 و12 دولة وبالطبع أصبح من الشائع بناء السدود والخزانات على الأنهار، فالعالم به أكثر من 8316 سدا كبيرا (أكثر من 15 مترا)، بل إن الولايات المتحدة الأميركية وحدها بها 2810 سدود، وبناء سد على نهر يعني إنشاء بحيرة صناعية.. كما أن المياه العذبة الموجودة حاليا تكفي لحياة أربعة أضعاف عدد السكان الموجودين في العالم، ولكن لسوء الحظ لا تتوزع هذه المياه توزيعا متساويا على خريطة العالم. ففي الوقت الذي تشكو فيه بعض مناطق العالم من الفيضانات المدمرة والمتكررة، تشكو مناطق أخرى من جفاف مستمر، مما يزيد من صعوبة الحياة فيها، لأنه إذا توافر الماء العذب هانت كل الصعوبات الأخرى.****وتبين الإحصاءات العلمية أن 98 في المئة من مجموع كميات المياه العذبة في العالم تختزن كمياه جوفية، وما يتبقى، وهو لا يتعدى 2 في المئة، هو فقط ما نشاهده في البحيرات والأنهار وخزانات السدود.. وبتعبير آخر نقول: إن الماء يغطي ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وينقسم إلى مياه ملحية تشكل 97 في المئة، ومياه عذبة أقل من 3 في المئة، وتتوزع هذه المياه العذبة ما بين متجمدة، والتي تمثل 77 في المئة منها، والمياه الأرضية 22 في المئة من المياه العذبة الكلية.. ويتوزع أقل من 1 في المئة ما بين البحيرات والأنهار والنباتات والحيوانات.****وبالنسبة إلى المياه الأرضية، يقدر العلماء حجم الماء الذي تختزنه صخور القشرة الأرضية بحوالي 9000 مليار من الكيلومترات المربعة، وهو ما يزيد 35 مرة على حجم الماء في المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار، وكذلك المثالج، أي المناطق القطبية. ولو أخرجوها من باطن الأرض لأغرقت كوكبنا بارتفاع مترين ونصف المتر .****ويعتبر الماء من أهم المواد التي يستطيع الإنسان عن طريقها التعرف على الحالات الثلاث للمادة، وهي حالات الصلابة والسيولة والغازية، كما استخدم الماء أيضا كأساس لقياسات الحرارة، فعندما نبرد الماء تدريجيا يتحول عند درجة معينة إلى حالة الصلابة، وهي الثلج بمختلف أنواعه، وقد اتخذت هذه الدرجة على أنها «درجة الصفر» في الترمومتر المئوي، وعندما نسخن الماء تدريجيا حتى يبدأ في الغليان والتحول إلى الحالة الغازية، وهي بخار الماء، فقد اعتبرت هذه الدرجة «درجة المئة» في الترمومتر المئوي، وبالطبع استخدمت درجة الصفر ودرجة المئة في عمل التقسيمات اللازمة للترمومتر المئوي.****ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل استخدم الماء أيضا كأساس لقياسات الأوزان، واتفق على أن يكون الغرام هو ما يعادل وزن سنتيمتر مكعب من الماء، وأن يكون الكيلوغرام هو ما يعادل وزن لتر واحد ماء، وبالطبع نعرف أن الكيلوغرام يساوي ألف غرام واللتر يساوي ألف سنتيمتر مكعب من الماء****ويعترف «المعجم الوجيز» بأن الماء سائل عليه عماد الحياة، يتركب من اتحاد الهيدروجين والأكسجين بنسبة حجمين من الأول إلى حجم من الثاني. وهو في نقائه شفاف، لا لون له ولا طعم ولا رائحة، ومنه:****1- الماء العذب: وهو ما قلت فيه نسبة الأملاح الذائبة، بحيث أصبح سائغا في الذوق من ناحية ملوحته.****2- الماء المالح: وهو ما زادت نسبة الأملاح فيه على نسبتها في الماء العذب.****3- الماء المعدني: الماء الطبيعي الذي يخرج من جوف الأرض، وبه أملاح ذائبة تكسبه طعما خاصا، وقد تكون له خواص طبية.****4- الماء المقطر: وهو الماء الناتج عن تكثيف بخار الماء، وهو خال من الأملاح.****5- الماء العسر: وهو الماء الذي لا يحدث رغوة مع الصابون بسهولة عند غسل الثياب، لاحتوائه على أملاح كالسيوم ومغنسيوم ذائبة فيه، وأما الذي يحدث رغوة مع الصابون بسهولة فهو الماء اليسر.****6- ماء الزهر: محلول مائي يحضر بالتقطير البخاري للزهور الناضرة، ولهذا المحلول رائحة الزهرة المعطرة، ومثله ماء الورد.****ويقال: ما أحسن ماء وجهه: رونقه ونضارته. ويقال: حفظ ماء وجهه: اعتز بكرامته. وذهب ماء شبابه: ذهبت نضارته. والنسبة إلى الماء: مائي، وماوي.. وجمع ماء مياه.****ونحن بدورنا يجب أن نعرف ونعترف بقيمة هذا الماء.. حين يقول الله عزوجل {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ  أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}، إذ نجد أن هذا الماء جعله الله تعالى أصلا لكل شيء حي، أصلا في الخلقة.. وأيضا في حفظ الحياة.. وفي استمرارها.****ولا يعوض الإنسان شيء إذا امتلك العالم كله وما به من أموال وحرم نقطة الماء؛ ولهذا حين نحافظ على نقطة الماء فإنما ندافع عن أصل الحياة بالنسبة إلى الإنسان والحيوان والطير في السماء؛ ولذلك فإن أي إسراف أو تلويث للماء يعد من المنكرات.****إن الحفاظ على أصل الحياة يتمثل في الحفاظ على كل قطرة ماء؛ لأن نعمة الماء لا يمكن لأي بشر، مهما صنع وامتلك التكنولوجيات، أن يخلق نقطة ماء.. إلا من الجو والعناصر الأصلية التي هي أيضا من صنع الله سبحانه وتعالى.****يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ} (النور:43). من هذا نفهم أن الله هو الذي يرسل الرياح ويسوق السحاب، والسحاب ينزل على الناس بإرادة الله، ويصرفه عمن يشاء وينزله على من يشاء.. فزمام الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى، فإذا لم نرع هذه النعمة (المياه) فالله تعالى سيتصرف التصرف الذي يخيفنا حتى نعرف قيمة هذه النعمة العظيمة، ولعل هذا يقودنا إلى فهم تساؤل الله العلى القدير حين يقول في كتابه الكريم: { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} (الواقعة:68).****ولك عزيزي القارئ، إذا كنت في نعمة فارعها، فإن المعاصي تزيل النعم، فلابد من تقوى الله في نعمة الماء حتى يحفظ الله علينا هذه النعمة العظيمة، وأي تلوث أو تخريب أو شيء ينقص من قيمة نعمة الماء العظيمة.. يعد جريمة، فالنعمة العظيمة يجب أن تصان، وصيانتها تكون انطلاقا من أمر الله وطاعة النبي  " صلى الله عليه وسلم" .****وللحديث بقية إن كان في العمر بقية.** |

 |